أبو العبّاس التيفاشي

٥٨٠ هـ - ٦٥١ هـ = (١١٨٤ م - ١٢٥٣ م)

وكتابه

أزهار الأفكار في جواهر الأحجار

عندما يسكت المؤرخون ، ولا سيما كتاب الطبقات منهم عن عَلم من أعلام الفكر ، أو رائد من رواد المعرفة ، فإن سكوتهم هذا لا يعني شيئاً في حقيقة الواقع ، وإن كان في بعض الأحيان ، يسدل ستاراً كثيفاً لا بد لنا من أشعة كاشفة قوية المفعول لتمزيقه .

فتاريخ الفكر والحضارة في الإسلام يشتمل على سلسلة طويلة ذات حلقات من الرواد والأعلام . ولكن الباحث المتعمق الذي يريد الربط المحكم بين هذه الحلقات يجد نفسه أحياناً أمام فراغ واسع بين حلقة وأخرى في سلسلة الحضارة والفكر . وليس لذلك من سبب سوى أن العناية كانت أولاً وبالذات متجهة إلى تدوين تاريخ الدول والملوك وأهل الحظوة والوجاهة ، حتى إذا اتسعت الآفاق أمام المدوّنين تناولوا طبقات أهل المذاهب والقراء والحفاظ والنحاة والشعراء والقضاة .

على أن هذه العناية كانت تلحق أحياناً الحكماء والأطباء والفلكيين وبعض رجال الفنون الأخرى ، فنجد من كتب في طبقاتهم . لكن الشغوف والاعتبار كانا دائماً في الجانب الآخر والسعيد من الأطباء والصيدليين والمهندسين والفلكيين والجوهريين والرحالين والجغرافيين هو الذي استطاع أن يكون إلى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

جانب مهارته في هذه الفنون ، قد عُرف بالفقه أو الحديث أو اللغة أو الشعر ، ليتخذ كتاب الطبقات ذلك ذريعة لحشره في زمرة الفقهاء أو المحدثين أو أهل اللغة أو الشعراء .

وأبو العباس التيفاشي الذي نحاول الحديث عنه اليوم مع كتابه القيم « أزهار الأفكار في جواهر الأحجار » أصدق من يمثل هذه الحقيقة التي أشرنا إليها آنفا .

فنحن أمام علم من أعلام الفكر والحضارة حاول أن يكتب دائرة معارف إسلامية في القرن السابع الهجري ونحن أمام كتاب فريد من نوعه لا يستطيع تأليفه إلا رجل من ذوي الاختصاص في البحث عن الأحجار المتنوعة وخواصها المعدنية والطبية والفروق الذاتية والعَرَضية التي تفرق بين أصنافها المختلفة وما يتبع ذلك من تحقيق وتدقيق وتفصيل .

ولكن ذلك لم يكن ليشفع لصاحبنا فيحتل مكانة مرموقة في كتاب من كتب الطبقات ؛ فقد سكتت عنه سكوتا غريبا ، وتجاهلت وجوده حتى خُيِّل لبعضهم أنه نكرة من النكرات ، أو مجهول من المجاهيل . ولولا أن صاحبنا قد تداركته عنايةُ الله فانتسب إلى القضاء على المذهب المالكي في وطنه لما حظي بهذه الترجمة القصيرة التي جاد بها عليه ابن فرحون في كتابه « الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب »[1] .

فبهذه الصفة نال عند ابن فرحون لقبيْ إمام وعلامة . غير أنه لم يبخل عليه بهذه العبارات :

« واشتغل بالأدب وعلوم الاوائل ... وكان فاضلاً بارعاً له شعر حسن ونشر جيد ومصنفات عديدة في فنون ... » .

(١) طبعة القاهرة ص ٧٤ - ٧٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أما المراجع الأخرى فقد وصمها ما وصع معاصريه فلم ينل منها إلا اشارات عابرة لا تطفئ غلة ولا[1] تروي ظمأ .

ونحن في هذا البحث نحاول أن نعطي صورة عن عصر التيفاشي ، وترجمة حياته ، وما أغفلته يد الزمان من آثاره ، ولا سيما كتابه القيم : «أزهار الأفكار في جواهر الأحجار» إذ هو المقصود الأهم عندنا هنا ، نظراً لما نلمسه فيه من اطلاع غزير ومعرفة دقيقة امتاز بها المؤلف التيفاشي في موضوع الأحجار الكريمة التي كان لها شأن في الحضارة الإسلامية إلى جانب الذهب والفضة والمعادن الأخرى .

عصر التيفاشي

نضجت حضارة الامبراطورية الموحدية في الشمال الإفريقي والأندلسي ، وكان عصر يوسف بن عبد المؤمن ٥٥٨ــ٥٨٠ هـ وابنه يعقوب المنصور ٥٨٠ــ٥٩٥ هـ عصراً ذهبياً أفرغت فيه الدولة طاقاتها في الحرب والسياسة والعلوم والفنون والآداب ، وتفاعلت فيه عبقرية المغاربة والأندلسيين تفاعلاً نلمسه في هذا التراث الضخم من آثار أعلام ذلك العصر الذين كانوا في رحلة دائمة بين قرطبة واشبيلية وغرناطة وفاس ومراكش وتلمسان وبجاية وتونس . ومن هناك نجد الكثير منهم يأخذ طريقه إلى مصر والشام والعراق والحجاز .

وكان بلاط الخلافة الموحدية مجمعاً تلتقي فيه شتى الكفايات والعبقريات في العلوم النظرية والعملية إلى جانب رجال السياسة والتدبير والحرب .

وقد ردد الشرق والغرب صدى انتصار يعقوب المنصور فيه معركة الأرك سنة ٥٩٣ هـ . ذلكم الانتصار الذي كاد يعصف بأحلام الصليبيين في الفردوس

(١) انظر السخاوي في الاعلان بالتوبيخ ص ١٦٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المفقود ، والذي أضفى على شخصية المنصور وعرشه في المغرب ما أضفى على شخصية معاصرة في الشرق السلطان صلاح الدين الأيوبي من اتساع النفوذ وبعد الصيت وجميل الذكر .

ولئن كانت معركة العِقَاب سنة ٦٠٩ هـ قد سلبت الموحدين نفوذهم السياسي فان سمة العصر وحضارة العصر ظلتا بارزتين في أرجاء امبراطوريتهم التي تجزأت الى عدة دول منها دولة الحفصيِّين في تونس ، وبنو زيد في الجزائر ، وبنو مرسي في المغرب ، وبنو الأحمر في غرناطة .

فطابع العصر كان هو طابع العظمة ، واتساع دائرة الثقافة ، واعتماد الدولة على عدد من رجال العلوم والفنون لرفع علمها وتدبير سياستها وتثبيت نفوذها .

وشيء آخر أثر في الشمال الإفريقي ، على الخصوص من الناحية الثقافية ، وهو هجرة الأندلسيين أفراداً وجماعات من وطنهم إلى بلاد المغرب العربي حيث يجدون الأمن والسلام واتساع دائرة العمل في ظل الدول الناشئة هناك .

ففي هذا العصر هاجر كل من ابن سعيد ، وابن الأبار ، وابن عُميرة ، وحازم القَرطاجنِّي وغيرهم ؛ وكان لهم تأثير في الحياة العلمية قوي المفعول ما زلنا نلمس آثاره في مؤلفاتهم وفي مؤلفات معاصريهم الذين أشادوا بمعارفهم الواسعة التي نشروها هناك .

وفي المشرق العربي كانت الخلافة العباسية في بغداد تئن تحت ضربات الغزاة المغامرين ، بينما كانت دولة الأيوبيين في مصر والشا تحمل مشعل الدفاع عن الكيان الإسلامي في تلك الديار .

وكما كانت أمصار المغرب العربية وعواصمه ملجأ لعلماء الأندلس ، كانت حواضر الشام ومصر ملجأ لعلماء العراق وما إليها من البلاد الفارسية .

شبكة الألوكة
www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وجاءت دولة المماليك بعد الأيوبيين فسارت على طريقهم واتسعت أمام رجالها آفاق العلوم والفنون بسبب من لاذ بحماها من أعلام العلم والأدب والفن .

وقد كان التيفاشي من الأعلام الذين عاشوا بمصر زمناً تجلت فيه مميزات العصر بأجلى مظاهرها في نواحي الحياة المختلفة .

فمن ناحية كان الخطر الصليبي يهدد كيان البلاد الإسلامية الممتدة على ضفاف البحر المتوسط . ومن أخرى كان الوعي الديني والحماس الوطني يدفعان ذوي السلطة والنفوذ في هذه البقعة من العالم الإسلامي إلى القيام برد الفعل والاستعداد للمعركة الفاصلة .

ولن يتأتى ذلك إلا بضم كثير من الكفايات ، وتجنيد جميع القوى الممكنة المادية منها والمعنوية .

فإذا نظرنا إلى مصر والشام من زوايا التاريخ المختلفة في هذا العصر « القرن السابع » وجدنا ميداناً يفور بتيارات متعددة في التصوف : الشرعي والبدعي ، وفي علوم الدين المختلفة ، وفي علوم التاريخ واللغة والحكمة والطب والفلك وغيرها .

فالعصر عصر ابن الحسن الشاذلي ، وابن عربي الحاتمي ، وابن دقيق العيد ، والعز بن عبد السلام ، وعبد اللطيف البغدادي وغيرهم .

كما ان العصر كان من الناحية الاقتصادية عظيم الأهمية بالنظر إلى التبادل التجاري بين الشرق والغرب ، وإلى أن رجال السلطة والنفوذ كانوا لا ينفكون يبحثون عن الرصيد الذي يكتنز في الخزائن من ذهب وفضة وأحجار كريمة لوقت الحاجة اليها عندما ترجف بهم راجفة من رواجف الحروب والفتن والثورات .

والمؤرخون المغاربة يروون في هذا الموضوع عدة قصص ووقائع عن اهتمام الملوك والوزراء بجمع الأحجار والتغالي في اقتنائها ، ونجد ذلك نفسه عند المؤرخين المشارقة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقصة اللؤلؤة التي فُقدت في مجلس الناصر الموحدي لما عرضت صحاف الأحجار الكريمة على أعيان الدولة شهيرة في كتب التاريخ [١] .

وقصص الهدايا المتبادلة بين ملوك المغرب وملوك مصر والشام وما تحتوي عليه من نفائس الأحجار نجدها في كل كتاب يؤرخ القرن السابع .

في هذا العصر عاش التيفاشي في موطنه الأول بتونس متصلاً بالحفصيين ، وفي موطنه الثاني بالقاهرة متصلاً بدولة المماليك .

ما نعرفه عن التيفاشي

هو أبو العباس ، وأبو الفضل أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبي بكر بن حمدون ابن حجاج بن ميمون بن سليمان بن سعيد القيسي . ولا شك أن هذا النسب الطويل الذي نقلناه من ابن فرحون ، مع النسبة إلى قيس ، يدلنا على أن صاحبنا كان من أسرة ذات جاه وحسب ونسب شأن الأسر التي اشتهرت إذ ذاك بالعلم وولاية المناصب في القضاء والفتوى والوزارة والحجابة وغيرها من المناصب الرفيعة .

ويذكر المؤرخون أن الخليفة عبد المؤمن بن علي الموحدي لما دخل إفريقية عام الأخماس ٥٥٥ هـ مدحه الفقيه محمد بن أبي العباس التيفاشي بقصيدة كان مطلعها :

ما هزَّ عِطفَيْه بين البيض والأسل   مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي [٢]

فأمره الخليفة بالاقتصار على المطلع لأنه في نظره حوى كل شيء !

وصاحب القصيدة هو ولا شك عم والد صاحبنا كما يظهر من سلسلة النسب التي قدمناها .

(١) انظرها في الإعلام بمن حل مراكش من الأعلام ج ٣ ص ٨٤ .
(٢) الاستقصاء ج ٢ ص ١٤٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتيفاش التي تنسب اليها أسرته هي تيفاش (الظالمة) التي حدثنا عنها ياقوت في المعجم وقال : « انها مدينة أزلية بإفريقية شامخة البناء تسمى تيفاش الظالمة ذات عيون ومزارع كثيرة وهي في سفح جبل » .

وكانت تيفاش في القديم تعد من قرى قفصة المدينة التونسية الشهيرة في الجنوب الغربي ، وهي الآن من عمالة قسنطينة بالقطر الجزائري . وصاحبنا يُنسب تارة إلى تيفاش ، وأخرى إلى قفصة ، وثالثة إلى القاهرة . والمتتبع لكلام صاحب كشف الظنون عن كتب التيفاشي يجده يذكر هذه النسبات الثلاث .

ولد أبو العباس بتيفاش كما يقول ابن فرحون سنة ٥٨٠ هـ ، وقضى صباه الأولى بين تيفاش وقفصة حيث كان أبوه قاضياً بها ، وهناك أخذ مبادىء العلوم عن أفراد من أسرته ، ثم دخل تونس العاصمة فأخذ عن شيوخها ، لكن نفسه طمحت إلى الشرق فارتحل ، وهو صغير السن كما يقول ابن فرحون ، إلى القاهرة ، وأخذ عن الطبيب الشهير عبد اللطيف البغدادي ، ثم إلى دمشق ، وأخذ عن تاج الدين الكندي .

لا ندري المدة التي قضاها التيفاشي في الشرق ، ولكننا نعلم أنه رجع إلى وطنه ليتولى منصب القضاء في ظل الدولة الحفصية التي كان بلاطها إذ ذاك يزخر بالأعلام كحازم القرطاجني ، وابن الأبار ، وابن سعيد وغيرهم .

ثم يرجع صاحبنا إلى الشرق ليقوم بعدة رحلات إلى أرمينية والعراق وفارس نجد صداها خلال المعلومات والتجارب التي قدمها لنا في كتابه الذي بين أيدينا .

وأخيراً يستوطن القاهرة ، ويعكف على تدوين كتبه التي نعرف عنها القليل ونجهل الكثير .

وفي القاهرة اتصل به المؤرخ الأندلسي الكبير أبو الحسن علي بن موسى ابن سعيد فاستفاد كل منهما من صاحبه استفادةً نجدها خلال كلام ابن سعيد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

في كتابه « الغصون اليانعة » حيث ينقل ابن سعيد أخبار الشاعر التلمفري [١] عن صديقه التيفاشي ؛ وكذلك عند حديثه عن الشاعر ابن الساعاتي نجده يستشهد برأي التيفاشي [٢] .

وفي كتاب « اختصار القدح المعلى » لابن سعيد نجده ينقل أيضاً عن التيفاشي بعض أخبار الشعراء [٣] .

ولا يكتفي بالنقل بل يجيز صديقه التيفاشي إجازةً وُجدت بخطه في آخر كتابه « المغرب في محاسن أهل المغرب » وقد ذكر ذلك المقري في نفح الطيب [٤] .

وفي القاهرة نال حظوة مكينة عند أعيانها ورجال الحكم فيها ، فألف باسمهم عدة كتب ، منها كتابه هذا : أزهار الأفكار ، الذي كان يؤلفه في سنة ٦٤٠ هـ ، كما يذكر في الكتاب ، أي قبل وفاته بإحدى عشرة سنة لأنه ودع هذه الحياة سنة ٦٥١ هـ .

مؤلفاته

يذكر لنا صاحب هدية العارفين ج ١ ص ٤٩٦ قائمة كتبه هكذا :

١ — أزهار الأفكار في محاسن الأحجار .

٢ — الدرة الفائقة في محاسن الأفارقة .

٣ — رجوع الشيخ إلى صباه .

٤ — سجع الهديل في أخبار النيل .

٥ — سرور النفس بمدارك الحواس الخمس .

---

(١) انظر ص ٥٩ .
(٢) انظر ص ١٢٤ .
(٣) انظر ص ١٦٤ .
(٤) انظر ج ٣ ص ٩٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

٦ — الشفا في الطب النبوي .

٧ — فصل الخطاب في ٢٤ مجلداً .

٨ — قادمة الجناح .

وغير ذلك ...

وقد اطلعت أخيراً على مخطوطة تحمل عنوان « نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب » لابي العباس التيفاشي . وموضوعها وصف الحياة الجنسية في محاسنها ومباذلها وصفاً مدققاً غريباً في بابه ! والمخطوطة دخلت المكتبة العامة بالرباط عدد ١٥٣٣ .

كتاب أزهار الأفكار

يبدأ أبو العباس التيفاشي كتابه بهذه العبارات :

« وبعد : فإن هذا الكتاب غريب الوضع ، عجيب الجمع ، عظيم النفع ، ضمنته في ذكر الأحجار الكريمة التي توجد في خزائن الملوك وذخائرهم ، وفي ذخائر الرؤساء والوزراء مما لا يستغني عن اقتنائه ملك كبير ، ولا وزير خطير ، لما يشتمل عليه من عظيم منافع وعجائب الخواص . ولم اشرك بها شيئاً من الأحجار المتداولة في أيدي العوام ، العارية عن الخواص الجهام ، والمنافع العظام ؛ ولا أذكر شيئاً من الأحجار الشاذة المعدومة أو النادرة الوجود ، ان كان ذلك مما لا طائل ولا جدوى في ذكره . وانما ينتفع بذكر الحاصل في الوجود ، لا الداخل في جنس المعدوم المفقود . وجملة الأحجار المثبتة فيه خمسة وعشرون حجراً وهي هذه الأبواب :

١ — في ذكر الجوهر ومعادنه وصفات غوصه ومنافعه ، ٢ — في الياقوت ومعادنه واختلاف ألوانه وخواصه ، ٣ — في الزمرد ومعادنه وخواصه ومنافعه ،

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

٤ — في الزبرجد ومعادنه ، ٥ — في البَلَخْش وعلة تكوّنه في معدنه ، ٦ — في البَنَفْش ومعادنه واختلاف ألوانه ، ٧ — في البِجَادِي وعلة تكونه في معدنه ، ٨ — في الألماس وعلة تكونه في معدنه وجيده ورديئه ، ٩ — في عين الهر وعلة تكوينه ، ١٠ — في البَادِزْهر وعلة تكونه في معدنه ، ١١ — في الفَيْرُوزَج وأصل تكوينه في معدنه ، ١٢ — في العقيق ، ١٣ — في الجزع ، ١٤ — في المغناطيس ، ١٥ — في السَّنْبَاذَج ، ١٦ — في الدَّهْنَج ، ١٧ — في اللاَّزَوَرْد ، ١٨ — في المرجان ، ١٩ — في السَّبَج ، ٢٠ — في الجمشت ، ٢١ — في الخُمَاهان ويعرف بالمندل الحديدي ، ٢٢ — في اليَشْم ، ٢٣ — في اليَشْب ، ٢٤ — في البِلَّوْر ، ٢٥ — في الطَّلْق .

هذه هي الحجارات التي فصل الكلام عليها في هذا الكتاب . وقد اختصرنا من العبارات التي استعملها المؤلف عند تقديم أبواب كتابه .

وبعد ذلك يشرح لنا المنهج الذي ارتضاه لمعالجة موضوعه فيقول :

« وسبيلنا أن نتكلم على كل واحد من هذه الأحجار المعدودة من خمسة أوجه : الوجه الأول : على تكوينه في معدنه . والثاني في ذكر معدنه الذي يتكون فيه . والثالث في جيده ورديئه وخالصه ومغشوشه . والرابع في ذكر خواصه ومنافعه . والخامس في ذكر قيمته وثمنه على أوسط الأمور وأغلب الأحوال ، فيكون هذا الكتاب بذلك زائداً على الكتب الموضوعة في هذا الفن من عدة وجوه ؛ إذ الكتب الموضوعة إما أن تذكر فيها منافع الأحجار ككتب الجواهر ، وإما أن تذكر فيها علة تكوينات الأحجار ككتب المعادن ، وإما أن تذكر الأمور جميعاً ولا تتعرض لذكر قيمتها وأثمانها . فلأجل ذلك كان هذا الكتاب أعمّ فائدة ، وأجدى عائدة ، من سائر الكتب الموضوعة في هذا الفن والله ولي التوفيق وبه الإعانة » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد أخلص المؤلف لمنهجه هذا فتناول معلومات عصره بالجمع والترتيب والشرح ؛ ولكنه زاد على ذلك شيئاً آخر وهو التجربة الشخصية والاستخبار والاستعلام ، فيختبر تارة ، ويسأل أهل المعرفة تارة أخرى ، ويضم ذلك إلى ما وجده في كتب الأقدمين ، من أرسطو ، إلى الكندي ، إلى المسعودي ، إلى غيرهم من المؤلفين اليونان والمسلمين ، شرقيين وأندلسيين .

وكثيراً ما نجده يقول : « ومما جربته ، واختبرته ، ووقفت عليه بالعمل ؛ وأخبرني من دخل جزيرة سرنديب (سيلان) ... وقد رأيت بسوق القاهرة حجارة تباع على أنها الياقوت أزرق وأصفر وهي مصبوغة مدلسة كان أصلها ياقوتاً أبيض » .

ونجده عند ذكر الزمرد يذكر عيوبه وخواصه . ومن جملة هذه الخواص أن بعض أنواعه إذا نظرت اليه الأفاعي انفقأت عيونها !

ولا يكتفي بذكر هذه الخاصة التي رآها في كتب الأقدمين ، بل إنه جربها عملياً فاستأجر حاوياً على صيد أفعى وجعلها في طست وأدنى قطعة الزمرد من عينيها فسمع فرقعة خفيفة ! ثم رأى عيني الأفعى وقد برزتا على وجهها !

وبذلك أرضى حاسة استطلاعه وتجربته ، وخرج من الشك إلى اليقين في هذه الخاصة العجيبة !

والتيفاشي في سبيل الحصول على معلومات دقيقة في موضوعه الذي اختاره لهذا الكتاب ينقل عن الجوهريين والصيادين والرحالين والتجار والأمراء وأمناء قصور الملوك ممن لا يشك في معرفتهم وتجربتهم وصدقهم :

فهذا تاجر أندلسي يصادفه في سوق الجوهريين بالاسكندرية ؛ وهذه حجارة من معدن البادزَهر يجدها في تخوم أرمينية ؛ وهذا جوهري من بلاد الفرس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وذلك من الصين أو الهند لا يدعهم المؤلف دون أن يأخذ ما عندهم من أخبار الجواهر وأثمانها ومظانها . ويربط ذلك كله بما درسه في الكتب أو سمعه من شيوخ الصناعة . وبذلك كان كتابه غزير المادة العلمية لمن أراد هذا النوع من البحث في تاريخ الحضارة الإسلامية .

والتيفاشي في كتابه الذي بين أيدينا وإن كان يبدو أكثر دقة وبحثاً وإحاطة بموضوعه ، فإنه يمثل عصره أصدق تمثيل في الخلط بين الصيدلة والطب وعلم المعادن ، كما يمثل أهل طبقته في الجمع بين الروحانيات والماديات والحقائق والأساطير .

ونحن على يقين أن العقلية التي كانت مسيطرة على رجال كثير من العلوم والفنون في العصور الوسطى هي العقلية التي يمكننا أن نسميها عقلية البحث عن الغرائب والعجائب ، ونجدها عند بعض الجغرافيين والرحالين والمؤرخين ، كما نجدها عند الباحثين في الأعشاب والعقاقير والمعادن .

ورغم هذه العقلية التي كانت مسيطرة فإن التيفاشي فيما يبدو كان أكثر تحفظاً وأكثر إمعاناً في أخذ المعرفة عن طريق التجربة . وكتابه أقل الكتب التي رأيناها خرافات وأساطير . والمقارنة بينه وبين غيره من الكتب المؤلفة في نفس الموضوع أو ما يقرب منه ترينا الفروق الواضحة بين من ينقل من الكتب ويسمع من الأقوال من دون انتقاد ولا تجربة ، وبين من يحاول الوصول إلى الحقيقة عن طريق التمحيص والاختبار الممكنين في ذلك العصر .

والذي يظهر من دراسة كتاب « أزهار الأفكار » أن التيفاشي كان يزاول مهنة « الجوهرية » بالفعل ، وكان قائماً بنفسه على معالجة الجواهر بالنار وأصناف العقاقير التي تؤثر في ألوانها وأوصافها وخواصها وجودتها ورداءتها ، وكان يملك منها عدة أنواع ، ويضرب في الأرض طولاً وعرضاً لاقتنائها ثم عرضها على الملوك والأمراء والوزراء من أجل نيل حظوة ومال .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد قدم لنا في المنهج الذي ارتضاه لكتابه أنه سوف يعتني بذكر قيمة الأحجار وثمنها في الأسواق ولا يتأتى هذا إلا لجوهري محترف مطلع على ما يروج في الأسواق المختلفة .

وقد أفادنا المؤلف بذلك فائدة غير مباشرة وهي أنه عرض علينا عدداً من السكك الرائجة في عصره في كل من الهند وفارس ومصر والعراق والمغرب ، عندما كان يُقوِّمُ الأحجار بقيمتها الحقيقية في كل من هذه الأقطار وبذلك أعطانا سُلَّماً ودليلاً للتحويل والصرف في ذلك العصر ؛ وبذلك تأكد لنا ما نعرفه سلفاً من الاختلاف الذي كان في السكك والموازين والمكاييل ووحدات المساحة في الأعصار والأمصار ، وكذلك في العصر الواحد ، والمصر الواحـد .

بعد هذا نستعرض مثالين من كلام التيفاشي لتدعيم هذه النتائج التي استنتجناها من الكتاب ، ننقل أولاً ما كتبه عن اللازَوَرْد حيث يقول :

معدنهُ : الذي يتكون فيه اللازورد يجلب من خراسان ، من جبل بطخرستان في موضع يسمى حستان من أرض فارس قريب من ناحية ارمينية (كذا) .

جيده ورديئه : اللازورد حجر طيني . وأجوده أشده وأصفاه لوناً السماوي المستوي الصّبغ إلى الكحلية .

خواصه في نفسه : منها إذا جُمع إلى حجر الذهب ازداد كل واحد منهما حسناً إلى صاحبه في أعين الناظرين وإن كانا لا يستحيلان عن كيانهما ولا يزدادان ولا ينقصان إلا أنهما يحسن كل واحد منهما لون صاحبه في العيون كأنهما شكلان متفقان .. ومنها أنه إذا وضعت قطعة منه في جمر ليس له دخان خرج لسان الجمر من النار منصبغاً بصبغه ، وبهذا يختبر خالصه من مغشوشه .

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ثم يذكر الطريقه التجريبية التي كانت مستعملة في عصره لاستخراج صبغ اللازورد من معدنه .. بأدواتها وعقاقيرها وأسرارها ! ويعقب على ذلك قائلاً .

« .. ولم أنقله من كتاب بل هو من جملة ما وقفت عليه بالتجربة من صحيح كتبنا في الأعمال الصناعية » .

هذا مثال أول من المعلومات التي قدمها التيفاشي في كتابه وهذه طريقته .

ولنقدم مثالاً ثانياً بما كتبه عن معدن الزمرد :

« موضع الزمرد الذي يؤتى منه من بلاد مصر والسودان خلف أسوان يوجد في جبل هناك يمتد كالجسر ، فيه معادن تحفر فيخرج منها الزمرد قطعاً صغاراً كالحصى منبثة في تراب المعدن وأخبرني رأس المؤتمنين بمصر المكلف من قبل السلطان بهذا المعدن أن أول ما يظهر من معدن الزمرد شيء يسمونه الطلق[1] وهي حجارة سوداء إذا أحمي عليها في النار أخرجت مرقشيشا[2] ذهبية . قال ثم يحفر فيجد طلقاً هشاً فيه الزمرد في تربة حمراء لينة مشتملة عليه .. » .

وهكذا يستمر التيفاشي يشرح لنا معلوماته الدقيقة عن خمسة وعشرين نوعاً من أنواع الأحجار الكريمة التي كانت مشهورة في عصره ، متتبعاً منهاجه الدقيق في الترتيب والتبويب .

ولا نودع صاحبنا دون أن نشير إلى نقطتين اثنتين :

١ — لغة التيفاشي ذات اصطلاحات فنية دقيقة ، وفي سبيل الدقة الفنية يستعمل أوصافاً ونعوتاً خاصة لا نجدها في كتب اللغة المتداولة .

فيقول عن بعض الأنواع : إن فيها « ذكراً » و « أنثى » ، وهو يعني الرديء والجيد ؛ كما يقول في بعض الألوان هذا « مغلوق » وهذا « مفتوح » ، يعني

(١) ما زال هذا الاسم عند الأوربيين هكذا Talc .

(٢) حجر النار .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شديداً وخفيفاً ، وله استعمالات لغوية جديرة بأن تكون رائد المهتمين بنقل الاصطلاحات الفنية من اللغات الأجنبية إلى لغة الضاد .

٢ – عرف الاستشراق أهمية كتاب أزهار الأفكار فطبع أولاً بعناية « راو » الهولندي سنة ١٧٨٤ م مع ترجمة لاتينية . ثم طبع مع ترجمة ايطالية سنة ١٨١٨ م ..

وكل من الطبعتين الآن أندر من الكبريت الأحمر . فعسى أن تكون كلمتنا هاته باعثاً على اعادة النظر في مخطوطاته المتعددة وطبعها طبعة عربية سليمة[1] .

فاس : (المغرب الاقصى) عبد القادر زمامة

(١) تراجع الأسماء الفرنسية للأحجار الكريمة وما يقابلها من الأسماء العربية في كتاب « نخب الذخائر في أحوال الجواهر » لابن الأكفاني ، حققه الأب أنستاس ماري الكرملي وطبعه في المطبعة العصرية لصاحبها الياس انطون الياس في القاهرة سنة ١٩٣٩ وتراجع ملاحظات الدكتور الجلبي على تحقيق الكرملي ، في هذه المجلة « ج ١٩ ص ٢٤٥ و ٣٤٣ » ، وتراجع مادة Pierre Précieuse في معجم الألفاظ الزراعية للأمير مصطفى الشهابي « الطبعة الثانية في مطبعة مصر بالقاهرة سنه ١٩٥٣ » .
(لجنة المجلة)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net